

الفصل الأول

عصر ابن الأثير

١ - الحالة السياسية

عاش ضياء الدين بن الأثير في النصف الثاني من القرن السادس والثالث الأول من القرن السابع تظله دولة بنى أيوب في مصر والشام والجزيرة .

وشهد هذا العصر مرحلة الانتقال بين الدولة العباسية الكبرى ، التي تمثل مجد العرب والمسلمين طوال مائتي على خمسة قرون ، وعصر التفكك والانحلال السياسي على أيدي المغول والصليبيين وفتت الدولة العربية إلى دويلات صغرى تحكمها جماعات متفرقة مذهباً وجنساً ، ثم انتهى الأمر بالاحتلال العثماني .

وإن كانت دولة الأيوبيين تمثل انتفاضة واعية للعرب والمسلمين ضد تغلغل المد الصليبي والأوربي في البلاد العربية الإسلامية .

ولد ضياء الدين (سنة ٥٤٨ هـ) بجزيرة ابن عمر شمالي الموصل . على الشاطئ الغربي لدجلة وكان العراق لا يزال مركزاً للخلافة الإسلامية العباسية ، ممثلة السلطة الدينية ؛ وسلاطين السلاجقة ، أو دولة السلاجقة بالعراق ممثلة السلطة الزمنية ، وقد شهد هذا العصر سلسلة من النزاع بين القوتين ، أدت إلى قيام كثير من الفتن والحروب .

وشجع الخلفاء - وهم في حال من الضعف - تنازع السلاجقة فيما بينهم واقتتلهم على الأسلاب من أقاليم الدولة الإسلامية ، والتف حول القوتين : الخلافة والسلاجقة ، جماعات من الأمراء والقادة والمغامرين ، لعبوا بمقدرات الناس وتطور الأحداث في هذه المنطقة ، فأخذوا بأيديهم أزمة الأمور يوجهونها تبعاً لأهوائهم

وأطماعهم . وكان من هؤلاء عماد الدين زنكى صاحب الموصل ، وأبناؤه الذين نشأ في كتبهم صلاح الدين الأيوبي .

ودارت بين عماد الدين زنكى صاحب الموصل وبين الصليبيين معارك دامية انتهت بسقوط إمارة « الرها » إحدى الإمارات الصليبية القوية التي أسسوها بالشرق العربي . ثم واصل الحملة والكفاح من بعده أبناؤه نور الدين محمود وخلفاؤه ، وصلاح الدين وخلفاؤه .

وشهد هذا العصر كذلك زوال أكبر دولة للشيعة في مصر هي دولة الفاطميين التي انتهت في مصر في نهاية النصف الأول من القرن السادس ، وكان ذلك نهاية للصراع بين قوتين كبيرتين قوة دولة العباسيين السنة والفاطميين الشيعة طوال قرنين من الزمان . وساعد على زوال هذه الدولة ما أصابها داخلياً من ضعف وفقر ، وتدخل في صورة مجموعة من ضروب النزاع والصراع بين القوى والعناصر المختلفة التي تقوم عليها الدولة . وكان لقيام قوة السلاجقة الحربية في العراق والشام أثرها المباشر في سقوطها على يد شريكه قائد نور الدين محمود وصلاح الدين ابن أخيه وخليفته .

وقد حاول بعض خلفاء العباسيين إعادة السيطرة إلى الخلافة في بغداد عن طريق الانحياز إلى بعض سلاطين السلاجقة وتأليبهم على بعض ، أو استغلال النزاع بينهم لاستعادة السلطة . فقد قاتل الخليفة المقتدى بالله (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) السلطانين السلجوقيين محمد شاه وأرسلان شاه ، وتمكن الخليفة من التغلب على السلطان محمد عند حصاره بغداد ، وساعد أهل بغداد خليفتهم وشاركوه في الدفاع عن بلدهم مساعدة فعالة . كذلك لعب الوزير عون الدين بن هبيرة دوراً هاماً في هذا الحصار .

ولكن النزاع ظل قائماً بين السلاجقة والخلفاء العباسيين ، ولم يدع سلاطين السلاجقة فرصة ولا وسيلة لإضعاف سلطاتهم ورفع أيديهم إلا انتهزوها ، وأخذوا

بها، شهرها ضدهم السلاح ، وأشعلوا الفتن . ودبروا المؤامرات لقتلهم ، فسلطوا الإسماعيلية ، فقتلوا الخليفة العباسي الراشد بتدبير منهم سنة ٥٣٢ هـ (١) .

ومع هذا الصراع الدامي الذي كان دائراً بين السلاجقة والخلفاء ، وبالرغم مما كان بينهم من العداوة فلم يستطع السلاجقة نسيان المكانة الدينية للعباسيين ولا مقاومتها، وكانوا هم بالضرورة حكاماً وسلطين يعتقدون مذهب أهل السنة ويتحمسون له ، ويروى أن السلطان محمود السلجوق طلب أن يحمل في مرضه إلى قصر الخليفة - عدوه السياسي - حتى يدعوه بالشفاء (٢) .

وأصل هؤلاء السلاجقة من الأتراك الذين كانوا يسكنون في الأصل حول بحر قزوين ، ومن جملة القبائل الأندوأوربية المشهورة بحب القتال والقروسية والتي بدأ نشاطها يهدد العالم العربي طوال القرنين الرابع والخامس إلى أن استولوا على السلطة في القرن الخامس وأقاموا في العالم العربي والإسلامي نظام الإقطاع الحربي لأول مرة في تاريخه .

ويقوم هذا النظام على أساس قيام كل سلطنة من سلطنتاتهم الثلاث على مجموعة من الإمارات أو الإقطاعيات التي يحكمها قائد أو أمير جيش بحيث يكون مسئولاً عن تكوين فرقة دائمة ومتأهبة للقتال ويتخذ له مركزاً في قلعة حصينة من قلاع العصور الوسطى التي بدأت تظهر في هذا العصر بكثرة في العالم الإسلامي ، ويتكون من مجموعة هذه الفرق قوة ضاربة سريعة الحركة تحت إمرة السلطان .

وقد ساعد هذا النظام السلاجقة وحكامهم الأقوياء كثيراً في تنفيذ مآربهم العسكرية وإخضاعهم لأعدائهم ، كما ساعد أيضاً على الوقوف أمام هجمات الصليبيين القوية المركزة طوال القرن السادس .

وكانت دولة السلاجقة منقسمة إلى ثلاث سلطنات يسيطر على كل منها سلطان قوى . وهي : سلطنة المشرق، وتسيطر على خراسان وبعض بلاد المشرق

(١) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٨ .

(٢) أخبار الدولة السلجوقية ص ٩٨ .

في فارس ، وسلطنة العراق وتسيطر على العراق والجزيرة وبعض أجزاء من شمال الشام اقتطعوا من الدولة الفاطمية ، ثم سلطنة الروم ، وكانت تسيطر على الجزء الشمالي الغربي من الجزيرة الفراتية وبعض أجزاء من شمال الشام وشبه جزيرة آسيا الصغرى .

واشتبك سلاطين السلاجقة في المشرق في صراع مع الدولة الخوارزمية في أقصى بلاد فارس على السيادة والسيطرة على الخلافة العباسية . واستنجد بهم الخليفة العباسي فهزموا السلطان السلجوقي طغرل بك سنة ٥٢٠ هـ ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على العراق أو دخول بغداد .

وبلغت دولة السلاجقة أوج قوتها في عصر ملكشاه أكبر سلاطينهم وأعظمهم وبدأت في الانحلال والضعف بعد موته ومقتل وزيره الجليل نظام الملك .

وقد خاض سلاجقة العراق والروم كثيراً من المعارك ضد الفاطميين والصليبيين ، بل بينهم أنفسهم . وكانت الدولة الفاطمية تلتفظ آخر أنفاسها بينا قوة الصليبيين كانت لا تزال في عنفوانها وأفواجهم الهادرة ما زالت تترى عبر آسيا الصغرى والبحر المتوسط طامعة في المشرق وحضارته وخيراته .

وفي منتصف القرن السادس الهجري ورث صلاح الدين السلطة عن أبناء زنكي والسلاجقة ، وسيطر على الشام ومصر والجزيرة العربية واليمن وشمال العراق وكافح الصليبيين كفاحاً باسلاً حتى أمكن له أن يقضى على أقوى إماراتهم في المشرق وهي إمارة بيت المقدس ، كما استعاد القدس بعد معركة حطين الفاصلة ، وذلك بفضل محاولاته الناجحة لجمع الكلمة العربية وتوحيد الصف الإسلامي في مواجهة الصليبيين وحملاتهم المتعددة .

وبعد وفاة صلاح الدين وأصل خلفاؤه : أبناؤه وأخوه العادل وأبناؤه من بعده ، رسالته في مقاومة الصليبيين والقضاء على نفوذهم واستئصال مراكزهم التي أقاموها على الشاطئ السوري ، وقد اقتسم أبناء صلاح الدين وإخوته الملك من بعده ؛ فتولى ابنه الأفضل على الشام وجعل قاعدته دمشق ، وابنه العزيز عثمان على مصر ،

وابنه الظاهر على حلب وشمال الشام ، وأخوه العادل على المشرق ثم ما لبث أن استولى على الشام ومصر .

ونشب النزاع بين أبناء صلاح الدين وشارك أخوه العادل في تطور هذا النزاع بنصره العزيز عثمان على أخيه الأفضل صاحب دمشق حتى استولى على ملكه ومن ثم عاد فتولى السلطة في مصر وأبقى على حلب صاحبها ، ومن ثم انتقلت السلطة من أيدي أبناء صلاح الدين إلى العادل وأبنائه .

وقد وزر ضياء الدين بن الأثير الجزرى للملك الأفضل بن صلاح الدين زمنًا أيام توليه السلطة بدمشق ، وشارك في الأحداث التي دارت بينه وبين إخوته وعمه الأفضل إلى أن أقصى عن السلطة .

٢ - الحياة الاجتماعية

وتأثرت الحياة الاجتماعية بالحالة السياسية فقد طرأ نظام الإقطاع الحربى الذى أدخله السلاجقة إلى العالم الإسلامى ، والذى شابه هذا النظام فى أوربا فى العصور الوسطى . وقبل إن الذى أشار به هو الوزير نظام الملك . فقد أشار على سلطانه أن يقطع كل أمير وقائد جنده فى جيشه إقطاعاً من ملكه العريض بحيث يتكفل كل منهم بما ينصل بإقطاعه من النواحى الإدارية والمالية والعسكرية ، على أن يتبع السلطان مباشرة ويقوم بأداء ما عليه من المال ، ويكون هو وجنده تحت إمرته كلما دعا الداعى أو كلفه السلطان بهم .

وقد أدى هذا النظام إلى قيام تنظيم عسكرى دقيق قوى يخرج فرساناً ومقاتلين أكفيا ممتازين يمكن الاعتماد عليهم فى المعارك التى يخوضها السلاطين للحفاظ على أملاكهم أو لتحقيق مآربهم وأطماعهم أو صد قوى العدوان على العالم الإسلامى واستطاعت هذه القوة المدربة أن تقف أمام القوى العسكرى لفرسان أوروبا الصليبيين طوال الحروب الصليبية التى استمرت أكثر من قرنين من الزمان .

وعلى ما كان لهذا النظام من محاسنه العسكرية ، فقد كانت له مساوئه الاجتماعية إذ أدى إلى تقسيم الناس إلى فئتين أو طبقتين متناقضتين إحداهما طبقة الأمراء وأصحاب الإقطاع ويلحق بهم التجار الكبار والأثرياء من المقرين للأمراء والسلاطين . والطبقة الدنيا ، طبقة الشعب الفقير التي لا تملك شيئاً ، وتتكون من الكادحين من فلاحي الأرض والأجراء وأصحاب المهن الصغيرة ، وعليهم جميعاً أن يسخروا أنفسهم لخدمة الطبقة الأولى وعمل السلاح وإعداد المؤن للجيش المحارب .

وكانت الأرض ومن عليها ملكاً لصاحب الإقطاع . لهذا كان يتصرف في إقطاعه من أرض وبشر وحيوان ونبات كما يشاء ليس عليه رقيب ولا يحده قانون ولا يقف في وجهه إلا السلطان ، وقد يراعى العلماء والقضاء إذا كان ممن يرعون للشرع ذمة ، وكثيراً ما كان يميل الأمراء مع هوى السلطان ويتبعهم العلماء والقضاة .

ولكن العلماء والنقهاء والقضاة وقفوا أحياناً في وجه الطغيان واضطروا الحكام إلى مراعاة العدل وتحكيم الشريعة الإسلامية ، وإن حوروا في فتوهم وأحكامهم حتى تطابق أو تسائر رغبات الحكام ، اللهم إلا من قل منهم ممن وقف أمام تلك الرغبات وصمد للاضطهاد والعسف .

وكان طبيعياً والحال كذلك أن يسوء توزيع الثروة ، ويضطرب ميزان الاعتدال ويختل توازن الدخل ، فيتعرض الناس لضرر اقتصادية مميته ، ومجاعات خانقة ومهلكة تجتاح الناس في موجات متتالية فتكتسح منهم الآلاف اكتساحاً .

كذلك كان طبيعياً أن ينتج عن هذا الاضطراب الاقتصادي وعدم توازن الدخل التجاء كثير من الناس إلى ضروب وأفانين من الكسب غير المشروع ولا الطبيعي ، أي ليس عن طريق الزراعة أو التجارة أو الأعمال المهنية الأخرى ، بل عن طرق من الاحتيال والنصب والخداع والتملق والسؤال والتفنن فيه لاكتساب المال من « حيث وليس » كما يقولون .

ويبدو السلطان والأمير صاحب الإقطاع دائماً في صورة المتفضل صاحب الحق والفضل الجواد الخير المتصدق حين يجود على الناس بالأعطيات والمال والهدايا والكساء مما يزيد عن حاجته ، أو ما يقدم لهم من الغذاء في المواسم والأعياد تقريباً إلى الله ربه ، ولكي يلهج له بالثناء ويدعى له بالخير ودوام السعادة ، وتعتبر هذه المنن وتعتقد المكرمات والمآثر .

فالسلطان والأمير هما المالكان لكل شيء ، ولا يملك الناس شيئاً فهذا حقهما والحرمان والجوع والعمل سخرة حق عامة الناس .

وإذا كانت الطبقة العليا قد جعلت لنفسها حق الامتلاك لكل شيء وحق الاستيلاء على كل شيء بالمصادرة ، فقد فرضت على نفسها واجب الدفاع عن الأرض وحمايتها من العدو والدفاع عن الشريعة والدين وكفالة الاستقرار والأمن ؛ ولكن هذه الصلة بين الطبقتين تفتقر إلى عناصر أساسية تجمع بين المحكوم والحاكم وتكفل لهما الترابط والتكافل والتعاقد .

ولم يكن غريباً أن يستغل الدين والعقائد لخدمة أغراض الحاكين وأصحاب المصالح على حساب عامة الناس . كما لم يكن غريباً أيضاً أن يتخذ الدين في صورة الصلاح والتقوى وسيلة من وسائل الرزق . فقد ظهرت جماعات لم يكن لها عمل في الحياة سوى الصلاح والتقوى ، وكان السلطان أو الأمير يتقرب إلى الناس بتقريب هؤلاء إليه وإيوائهم والإنفاق عليهم ، وهكذا ظهرت بدعة التكايا ورباطات الصوفية وكانت تضم جماعات وأشتاتاً من الخلق من مختلف بلاد العالم الإسلامي يأكلون ويشربون ويدعون للأسياد بالخير والبركة إذا ما استمر المدد ، ويدعون عليهم بالويل والثبور وعظائم الأمور والنكال في الدنيا والآخرة ، إذا انقطعت الرواتب أو أسيئت المعاملة .

وكان من الأمور المعهودة أن يقام في كل مدينة كبيرة من مدن العالم الإسلامي رباط أو ربط للصوفية إلى جانب المسجد الجامع أو المساجد الكبيرة ، تكون بمنزلة الخان أو النزول ينزل به أولئك الصوفية والزاهدون وطلاب العلم الذين يطوفون بالعالم

الإسلامى شرقاً وغرباً ، ويقضون حياتهم هكذا فى التنقل والعيش الرضى الهادئ الهائى .

وقد نشأ نظام الرباط أصلاً للجهاد فى الثغور ثم تحول إلى تكيئة للمأكل والمشرب وحياة البطالة .

وربما نشأ عن هذا النظام بعض الفائدة فى نشر العلم ، وحفظ القرآن ، وتهيئة الجو الهادئ للدارسين وحفاظ الحديث ، ولكنه إلى جانب هذا أساء إلى المجتمع بما أشاع فى صفوفه من روح التواكل والسلبية التى كانت طابع الشعب أو المحكومين ولم يقيم الشعب بأدوار إيجابية فعالة فى الجهاد الحقيقى الفعال فى الجيش العامل ، إنما كان أكثر الفرسان والمقاتلة من المدربين أبناء الطبقات الحاكمة أو من الجند المرتزقة من فتيان الترك والمماليك .

فكان الجيش جيشاً معترفاً يعمل بالأجر ويحرص السلاطين على انتظام رواتبه حتى لا يثور . ولا يعمل بدوافع وطنية بحجة للدفاع عن الأرض ، وإن كان هذا لا يعنى أن الشعب لم يصل الحرب ولم يقتحمها ، بل إنه مع ذلك شارك بعرقه وكفاحه فى سبيل إمداد الجيوش وتهيئة الجو المناسب والعون المناسب للقتال ؛ فكانت تقف وراء الجيوش المقاتلة جيوش أخرى من العاملين فى السلاح والمؤونة والنقل وما إلى ذلك .

وربما كانت الحروب الصليبية أول تجربة عنيفة يواجهها نظام الإقطاع الحربى أو العسكرى الذى أوجده نظام الملك ، والذى أدى إلى محاولة السلاطين مراعاة المحكومين والاعتماد عليهم ، وقد تنبه صلاح الدين وبعضى الحكام الآخرين إلى ضرورة الاعتماد على الشعب فى حركات المقاومة والدفاع والبناء القوى للدولة .

وقد وقف شعب الإسكندرية مع صلاح الدين فى مقاومة جند ملك بيت المقدس مرة ومرة أخرى فى مقاومة الغزاة من الصليبيين الذين اتخذوا من قبرص قاعدة للحملة على الإسكندرية فى أيامه .

وكان المجتمع العربي في عصر ضياء الدين بن الأثير في القرنين السادس والسابع يتكون من أمشاج متعددة من عناصر وجنسيات متباينة الطباع والعادات والأخلاق والديانات وإن كان السواد الأعظم من العرب يليهم الأكراد والأتراك والأقباط في مصر والأرمن وغيرهم من الجماعات الأوروبية في سوريا . ولكل عنصر من هذه العناصر تراثها الفكري والاجتماعي والديني ، وأدى اختلاطها إلى ظهور آثار جديدة في الفكر العربي والإسلامي وإلى تغير في العادات والتقاليد ووفود كثير من « البدع » الطارئة .

وكان للعنصرين الكردي والتركى أثرهما الفعال في الحياة الاجتماعية ، وكان الأكراد يحكم سيطرتهم واستيلائهم على السلطة ، وإن كانوا قد حاولوا الاندماج في العنصر العربي ، واصطناع أنساب عربية كما فعل الأيوبيون ، وامتازوا بالحماس الديني ، والشراسة والصلابة في القتال مما جعل منهم محاررين ممتازين ، وكثر الأتراك غلماناً يجلبون من أسواق النخاسة المنتشرة آنذاك في أطراف العالم الإسلامي ومدنه الكبرى وكانوا يمتازون بجمال الصورة وحسن البنية وقوة الأجساد والاستعداد الحربي الممتاز مما جعل أمراء الأكراد والعرب يفضلونهم في إنشاء قوة خاصة بهم تكون حرساً خاصاً أو قوة مقاتلة في الجيوش ، وأثبت كثير منهم كفاءة عالية في الحروب والفنون العسكرية .

وتزايد الأتراك في المجتمع العربي تزايداً كبيراً مما سبب كثيراً من المتاعب الصعبة خضوعهم للقوانين والتقاليد ولشراستهم ، وميلهم إلى السلب والنهب . على أنهم كانوا إلى جانب ذلك موضوعاً طريفاً للشعر لجمالهم ، فكثيراً ما نجد السادة بل العلماء يقتنون فتيان الأتراك ويتغزل فيهم الشعراء والكتاب .

كذلك كثرت النساء التركيات في بيوت السادة والأثرياء ، واتخذوا منهن زوجات وحظايا وبلغت بعضهن مكانات مرموقة في الدولة كشجرة الدر واشتهرت بعضهن في الفن والعلم والأدب .

وتراجع العنصر العربي في هذا العصر عن مكان السيادة والسيطرة ، وإن ظلت

بعض القبائل العربية القوية في الشام والحزيرة وصعينمصر تحاول إثبات وجودها بزعامة بعض رجالها الأقوياء. واحتفظت بعضها بتقاليدها وعاداتها العربية الأصيلة، واندمج بعضها الآخر اندماجاً كاملاً في أهل البلاد التي حاولوا بها واحترفوا الزراعة والصناعة والتجارة .

ولم يذكر من حركات القبائل القوية في هذا العصر سوى حركة أحد أمراء العرب ويدعى ديبس بن صدقة سنة ٥١٥ هـ الذي حاول اغتصاب السلطة من خليفة بغداد، ولكنه فشل في فتح بغداد بعد أن جاءت نجدات قوية من الشمال والشرق لمعاونته . كذلك ثارت بعض القبائل في صعيد مصر في أواخر الحكم الفاطمي ، وأوائل حكم صلاح الدين وأمكنه قمعهم .

وكانت بعض العناصر الفارسية قد تسللت إلى العالم الإسلامي ، وكان منهم العلماء والأدباء الذين هاجروا إلى الشام ومصر ، ونبغ منهم في هذا العصر كثيرون وظهر منهم الزمخشري الذي قام برحلته إلى العراق والحجاز وجاور في مكة زمناً ، والحافظ السلفي الذي رحل إلى العراق والشام ومصر واستقر بالإسكندرية ، وعماد الدين الأصفهاني الذي جاء إلى الشام ومصر ورافق صلاح الدين ووزيره الكاتب القاضي الفاضل .

وعاش الأقباط في مصر في سلام مع العرب منذ الفتح العربي ، وأسلم منهم كثيرون وتعمروا وزاد عدد المسلمين منهم في هذا العصر وصار منهم شعراء مبرزون وقادة محنكون ورجال دولة ، مثل الخطير مهذب بن مينا وابنه الكاتب الشاعر أسعد ابن ممانى صاحب « الفاشوش في حكم قراقوش » و « قوانين الدواوين » .

واحتفظ الأقباط بعباداتهم وتقاليدهم ، وأتيح لهم القيام بطقوسهم وعباداتهم في حرية ، وقاموا بدور فعال في الإدارة وخاصة في دواوين الكتابة والحراج . ويقول ستانلي لابول : « وكان القبط الذين ولدوا ليصبحوا كتاباً وصيارفة

يقومون بإدارة الدواوين جميعاً . وظلت الكتب الحكومية والوثائق العامة في مصر تدون باللغة القبطية نصف قرن بعد الفتح » .

وأدخل نظام الملك الوزير السلجوق نظام المدارس الإسلامية وبنى كثيراً منها في عواصم العالم العربي والإسلامي الكبرى، وكان من بين أهدافه تدعيم نشر مذهب أهل السنة وحفظ القرآن والحديث إلى جانب العلوم العقلية الأخرى . وكان نظام الملك وملكشاه محبين للعمارة والإنشاءات فبنيت في عصرهما إلى جانب المدارس كثير من المساجد والمارستانات وتبعهما في ذلك نور الدين محمود، وصلاح الدين وخلفاؤه ، وبنيت القلاع والمارستانات والمدارس ودور الحديث والربط والخانقاه في دمشق وحلب والقاهرة والموصل .

ونشطت التجارة بين المشرق العربي والإسلامي والغرب الأوربي بالرغم من الحروب المتصلة ، وكانت التجارة تنتقل من أقصى المشرق ، من الصين والهند وبلاد فارس عبر العراق والجزيرة والشام إلى البحر المتوسط فأوروبا ، أو قد تنتقل إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ثم إلى النيل فإلى القاهرة فالإسكندرية أو دمياط فأوروبا . وقد أثرى كثير من تجار مصر والشام والعراق نتيجة نشاطهم التجاري . وكان لمصر والشام بموقعهما الممتاز وسط العالم العربي والإسلامي ، وفي سرية العالم القديم ولوقوعهما على البحر المتوسط نشاط ممتاز في التجارة بين الشرق والغرب ، تلاقى فيهما تجارة أوروبا ومصنوعاتها وتحف الشرق ومنتجاتها واتصلتا بالبندقية وبيزا وجنوة بروابط وثيقة . وكانت التجارة تخضع لبعض الاحتكارات من الحكام والأمراء فقد احتكروا أصنافاً معينة من البضاعة والغلات .

وقد أدى حكم صلاح الدين إلى الحد من استغلال أصحاب الإقطاع وشجع الزراعة وساعد هو وخلفاؤه على ازدهار التجارة ؛ فتسامحوا مع تجار الإفرنج في دخول البلاد الإسلامية وتبادل التجارة مع أهلها ، كذلك سمح الإفرنج لتجار العرب والمسلمين بدخول بلادهم . ووقع العادل معاهدة تجارية مع البندقية^(١) .

وخفف المكوس على التجارة والوافدين بعد أن كانت باهظة^(١) ، وذلك بمشور أصدره سنة ٥٦٧ هـ . ونشطت الصناعة المحلية كصناعة الحرير بالموصل والمصنوعات الزجاجية والحرير الملون بتيسر والإسكندرية ودمياط وكان يصدر منها إلى سائر العالم في المشرق والمغرب .

وحدثت هزات اقتصادية أدت إلى المجاعات نتيجة الكساد والأوبئة وانخفاض النيل واضطراب أحوال الأمن ، وخوف الناس من المصادرة التي كان يلجأ إليها بعض الحكام والوزراء الجائرين . ولعل أخطر ما حدث بمصر والشام والعراق من غلاء ومجاعة كان سنة ٥٧٤ هـ . قال عز الدين بن الأثير : « وفي سنة ٥٧٤ اشتد الغلاء ، وعم أكثر بلاد العراق ومصر وديار بكر والجزيرة والشام وغير ذلك من البلاد ودام إلى أن انقضت السنة^(٢) » . كذلك كانت أشد المجاعات بمصر فتكّأ بالسكان في عهد العادل أيوب واستمرت ثلاث سنوات من ٥٩٦ هـ إلى سنة ٥٩٩ هـ وكان أشدها سنة ٥٧٩ هـ ، وسببها انخفاض النيل ، فانتشر القحط وهرب الناس من مصر إلى الشام وانعدمت الحبوب واشتد البلاء . وكتب عماد الدين الأصبهاني يقول :

« وفي سنة ٥٩٧ اشتد الغلاء وامتد البلاء ، وتحققت المجاعة ، وتفرقت الجماعة ، وهلك القوى ، فكيف الضعيف ، ونحف السمين فكيف العجيف ، وخرج الناس خوفاً الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر في الأمصار ، ولقد رأيت الأرامل على الرمال ، والجمال باركة تحت الأحمال ، ومراكب الإفرنج واقفة على ساحل البحر على اللحم تشدق الجياع باللحم » .

وازدهرت بالرغم من ذلك العواصم الكبرى بحياة الترف في قصور السادة وكبار التجار والأثرياء ، وعمت البساتين اليانعة ، وتفنن الناس في ضروب الملابس والمأكول والمشرب ، وتنافسوا في التأنق ، وانطبع أهل المدن بالدماثة ومراعاة آداب

(١) راجع رحلة ابن جبير ص ٣٨ ط . جب والروستين ٢٠٥/١ .

(٢) الكامل لابن الأثير ٤ في تلك السنة .

السلوك ، والرقة في المعاملة والخطاب ، والظرف وحب اللهو والطرب . قال ابن جبير يصف أهل بلاد المشرق من بغداد ودمشق : « ومن عجيب حال الصغير عندهم والكبير بجميع هذه الجهات كلها إنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قابضين بالواحدة على الأخرى ، ويركنون للسلام على تلك الحال المشبهة بأحوال الفتاة مهانة واستكانة ، كأنهم قد سيموا تعنتاً وأوثقوا تكتيفاً . وهم يعتقدون تلك الهيئة تمييزاً لهم في ذوى الخصوصية وتشريفاً^(١) . »

ثم يسخر ابن جبير من فرط مجاملتهم وإسرافهم في التحية بالانحناء والإشارة وهز الرؤوس ، كما يعجب من لباسهم الذى يجرونه من وراء « والمحتشم منهم من يسحب ذيله على الأرض شبراً » .

واهتموا بقضاء أوقات الطرب واللهو فى الحدائق يشربون وينعمون بالغناء والموسيقى بين الجوارى الحسان والغلمان الصباح الوجوه . وكان من تلك الأماكن التزهة بدمشق بردى وخان العقيقة بظاهر البلد ، قال عنه ابن جبير :
« قد جمع أسباب الملاذ ويجرى فيه الفسق والفجور بما لا يُحدُّ ولا يوصف » .
وبالقاهرة بركة الفيل وغيرها .

وراجت تجارة الرقيق من كل نوع ، وكان يشتهر بها فى هذا العصر جماعة من تجار جنوة والبندقية ، يتفننون فى ترويقه ، وكان من عادة الناس اقتناء الجوارى والغلمان دون حرج حتى العلماء منهم والفقهاء .

وعرف الناس إلى جانب الخمر حشيشة الدينار ، وقد نشرها جماعة الحشاشين من أتباع الحسن الصباح ، وهم طائفة من الإسماعيلية ، وأقبل عليها جماعة من الصوفية وفضلوها على الخمر لأنها غير محرمة فى عرفهم فلم ينزل بها نص وهى تساعدهم على سبحاتهم وتهويماتهم فى عوالمهم .

٣ - الحياة الفكرية

وقد كان للعوامل السياسية والاجتماعية آثارها البالغة على الحياة الفكرية والأدبية في هذا الجزء من العالم العربي (مصر والشام والعراق) والظاهرة الجديدة بالانتباه تلك الألوان من العقائد والفرق الدينية التي كثرت كثرة بالغة وكانت نتيجة للاختلاط بين الأجناس والعناصر المختلفة ، وبين أمشاج من العقائد والديانات وبين الإسلام ، فمن سنين وشيعة ودروز وباطنية وحشيشية ويهود ونصارى ووثنيين وعرب وإفرنج وفرنس وروم وأتراك وأكراد ومن بقايا عقائد قديمة لازالت تمعش وتفرخ كالمانوية والزرادشية والصابئة . وقد أثرت هذه جميعاً في الفرق والمذاهب المستحدثة والمبتدعة ، والطرق التي نفشت في الإسلام .

كذلك بدت ظاهرة واضحة في اهتمام المسلمين بظاهر الإسلام والعبادات والحرص على حفظ الحديث والقرآن والتفسير والاهتمام بالشريعة واحترام العلماء والفقهاء . وغالى الأمراء والسلاطين في الحرص على هذه المظاهر وبناء المدارس والمساجد ودور القرآن والحديث ، وتقريب العلماء والفقهاء واحترامهم والإغداق عليهم .

وكان صلاح الدين يهتم بإقامة شعائر الدين ، ويحارب الفجور في أنحاء دولته ويتعصب لمذهب أهل السنة ، ويحارب الملاحدة : والمتفلسفة ، وقد أمر صلاح الدين بقتل السهورودي صاحب فلسفة الإشراق . وكان النزاع العقدي بين الفرق يبلغ درجة الصراع المسلح وخاصة بين أهل السنة والرافضة والشيعة عامة . وذكر ابن جبّير أن بعض المسلمين في الشام قد ندبوا أنفسهم لحرب هؤلاء الرافضة والشيعة فألقوا بينهم جماعة أطلقوا عليها اسم (النبوية) وهم سنيون

يدينون بالفتوة وأخلاق الرجولة ، وقد سلطهم الله على الرافضة يقاتلونهم أينما وجدوهم^(١) .

وبلغ الحقد أقصاه أحياناً لدرجة تسليم البلاد للأعداء تشفيماً من أعداء المذهب ، ومثاله ما فعله ابن العلقمي الوزير الشيعي الرافضي الذي خان مولاه الخليفة المستعصم بالله العباسي السني وسلم بغداد للنتار^(٢) .

كذلك كان يجري بين الحنابلة والأشعرية العجائب من السباب وتكفير بعضهم بعضاً^(٣) . وانتشر التصوف في هذا العصر وتعددت طرقه وظهر فيه جماعة من كبار الصوفية كالسهروردي وابن عربي وابن الفارض ، كما ظهرت طرق الرفاعية والشاذلية وغيرهما . وليس غريباً أن تنتشر الصوفية في هذا العصر فقد وجدت المجال مناسباً والبيئة صالحة لتنمو وتترعرع . إذ لاشك أنه بسبب ما كان يسود العصر من روح الانصرافية والسلبية بكثرة الاضطراب والمظالم الاجتماعية والهزات الاقتصادية العنيفة وكثرة الحروب ، انصرف الناس إلى التماس الهروب من الحياة بأخطارها وشروها والتماس حياة أخرى روحية يعيشونها بوجدانهم في نكس وتعبد فانتحي الخيرون جانباً تقيّة وورعاً ، وأسلم العاجزون أنفسهم للفقير والضعف عجزاً وقصوراً ، وقبحوا للناس الحياة وملاذها ووصفوها أقبح الوصف وأرذله وخلطوا صفوها بكدر ، ودعوهم إلى الحياة الآخرة والابتعاد عن مآثم الدنيا .

ولا شك أن الحكام شجعوا هذا الاتجاه إما رغبة حقيقية لدى القلة منهم والتماس جانب الدين ، أو رجاء صرف الناس عنهم بإشاعة دعوة التوكل وعدم المطالبة ورفض الدنيا وما فيها .

وقد قال ابن جبير حين زار ربط الصوفية : « وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الحياة الدنيا وفضولها وفرغ خواطرها لعبادته

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٨٠ .

(٢) فوات الوفيات ٣١٣/٢ .

(٣) مرآة الزمان ٤٧٦/٨ .

من الفكرة في أسباب العيش وأسكنهم في قصور تذكروهم قصور الجنان (١) .

ومن علماء الصوفية في هذا العصر نجم الدين كبرى ، ومجد الدين البغدادي (توفي بين سنة ٦٠٦ و سنة ٦١١ هـ) ونجم الدين الداية (توفي سنة ٦٥٤ هـ) وشهاب الدين السهروردي صاحب التصانيف المشهورة في التصوف مثل « عوارف المعارف » (توفي سنة ٦٣٢ هـ) وعبد القادر الجيلاني ومحيي الدين بن العربي صاحب كتب « فصوص الحكيم » و« الفتوحات المكية » ، وتزيد مؤلفاته على خمسة عشر كتاباً إلى جانب ديوان من الشعر .

وأقبل الناس على معرفة أحوال النجوم وشاع التنجيم وأشار ضياء الدين في إحدى رسائله إلى المنجمين والتنجيم في عصره فقال : « ولقد توهم أهل التنجيم بالتسيير والتقويم ، والحكم على العليم الحكيم ، فأخبروا عن النجوم في سعودها ونحوها بما لم تخبره عن نفوسها ، وقضوا في ترتيب أبراجها واختلاف مزاجها ، وحكموا على حوادث العمر في حال وجوده إلى علمه ، في سعادته وشقاوته ، وصحته وسقمه ، وأشابه ذلك من الزخارف التي نصبوها للاكتساب على غير ذوى الألباب ، وكلها أضغاث أحلام ، وأوضاع لا تخرج عن خط الأرقام (٢) .

وظهرت اتجاهات دهرية ، فوجد أناس يؤمنون بحكم الكواكب في التدبير ، ونفى البعث ، والاعتقاد « بأن الزمان دور وأن الإنسان نبات أو نور » كما يقول ابن خلكان (٣) .

واهتم العلماء بالفلسفة والعلوم العقلية ، وأقبل كثيرون على علوم اليونان كالرياضة والفلك والطب والعلم الطبيعي ، وكانت بلاد خوارزم مركزاً حياً لهذه الدراسات في هذا العصر ، كذلك وجد في خراسان مراكز متفرقة ، كما اهتم المغاربة والأندلسيون بها وظهر في هذا العصر جماعة من أعلام هذه الدراسة مثل عمر

(١) رحلة ابن جبير ٢٨٤ .

(٢) الوشى المرقوم لضياء الدين ص ٥٨ .

(٣) رفيات الأعيان ٥٦/٤ في ترجمة ابن الصائع .

الحيام والفخر الرازي في المشرق وابن رشد في المغرب (توفي سنة ٥٩٥ هـ) وابن
الطفيل (توفي سنة ٥٨١ هـ) .

وقرب صلاح الدين وخلفاؤه الفقهاء والمحدثين وأغدقوا عليهم . ويقول أبو شامة:
« إن صلاح الدين كان متى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإن كان
من يحضر مجلسه أحضره وسمع عليه ، وأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده
وماليكه والمختصين به . وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له .
وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم
سمى إليه وسمع عليه . وتردد على الحافظ السلتي بالإسكندرية (١) » .

ومن أعلام فقهاء هذا العصر ابن الجوزي ، وابن الصلاح ، وأبناء السهروردي
والسرخسي . وقد ألف ابن الجوزي في كثير من فروع الثقافة الإسلامية؛ في القرآن
والحديث . والتاريخ واللغة والأدب وقيل إن تصانيفه بلغت ثمانمائة (٢) وألف
الكاساني (سنة ٥٨٧ هـ) كتابه المشهور في الفقه ، والسرخسي كتاب المبسوط ،
وابن قدامة (توفي سنة ٦٢٠ هـ) كتابه « المعنى » في الفقه الحنبلي .

كذلك اهتم العلماء بالسيرة والتاريخ والتراجم ، وبتاريخ البلدان ، ومن أشهر
المؤرخين في هذا العصر ابن الجوزي (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) صاحب كتاب
« المنتظم » وابن الساعي صاحب « المختصر » ، وعز الدين بن الأثير صاحب كتاب
« الكامل في التاريخ » وابن النجار صاحب « ذيل تاريخ بغداد » ، وابن عساكر
صاحب « تاريخ دمشق » ، وعبد اللطيف البغدادي صاحب « تاريخ مصر »
وابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين المعروفة باسم « النوادر السلطانية » ،
وعمد الدين الأصبهاني صاحب كتب : « البرق الشامي » و « الفتح القدسي » ،
وياقوت الحموي صاحب « معجم الأدباء » ، وابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » ،
وكمال الدين بن الأنباري صاحب « طبقات النحويين » ، والقفطي صاحب : « إنباه

(١) كتاب الروضتين ٢/٢١٩ .

(٢) مرآة الزمان ٨/٤٨٩ .

الرواة في أخبار اللغويين والنحاة»، وابن أبي أصيبعة (توفي سنة ٦٦٨ هـ) صاحب «معجم الأطباء» .

كذلك ازدهرت الدراسات اللغوية على أيدي جماعة من كبار العلماء الذين خلدت كتبهم ولا تزال تدرس ويتناولها العلماء في كل عصر بالشرح والتعليق والتعليم مثل الزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨ هـ) صاحب المفصل ، وابن خروف (توفي سنة ٦٠٦ هـ) وابن الحشاب ، وابن الشجري ، والجواليقي ، والبكري (المتوفى سنة ٦١٦ هـ) .

واهتم علماء اللغة في هذا العصر بشرح الكتب الكبرى والتعليق عليها ، فقد شرح الجواليقي مقدمة أدب الكاتب لابن قتيبة . وشرح ابن الشجري كتاب اللمع لابن جنبي ، ودرس علي بن محمد الفصيحى كتاب «الفصح» لثعلب ودرسه بنظامية بغداد ونسب إليه . وشرح ابن الحشاب (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) كتاب «الجمل» لعبد القاهر الجرجاني وسماه «المرتجل في شرح الجمل» .

٤ - الأدب والأدباء

وصف جب هذا العصر بأنه العصر الفضى للأدب إذا صح أن نطلق على العصر السابق العصر الذهبي ، ونعته بأنه لم يتميز بالإبداع والعبقرية قدر امتياز به البراعة والصنعة أو المهارة الفنية التي غلبت إلى حد كبير على العبقرية والابتكار^(١) . ويمكن أن يكون هذا الوصف صحيحاً إلى حد كبير فقد غلبت الصنعة على أدب هذا العصر ، ولكنه مع ذلك لم يخل من الابتكار . وغلب عليه طابع التسلية فكان في كثير من جوانبه وموضوعاته أدب تسلية وقطع للوقت فيه قدر كبير من اللعب باللفظ والمعنى والمهارة في التعمية واللغز بقصد السمر والدعابة . وكان على الأديب شاعراً وناثراً أن يكون فطناً ملمساً بالكثير من فروع المعرفة

بارعاً قديراً على اللعب بالألغاز والمعاني ، وإلا كان أديباً كاسد السوق غير مقرب لدى الرؤساء ولا مختاراً في مجالسهم وأسماهم .

ومن خصائص هذا الأدب في الكتابة وخاصة في الرسائل كثرة ألفاظ المديح والإطراء ، والافتتاحيات الطويلة المليئة بمعاني الخضوع والذلة وقد أشاعت مقامات الحريري بما فيها من ضروب اللعب بالألغاز والمعاني صنوفاً من الخلق الأسلوبية التي أغرم بها الكتاب والشعراء كثيراً فاستغلت أصوات الحروف استغلالاً كثيراً ، في محاولة التوفيق بينها وترديدها بصورة أو أخرى . ومالوا في الشعر إلى الأوزان الخفيفة الراقصة وتوليد الأوزان الجديدة .

وأملى كثيراً من هذه الاتجاهات ذوق العصر والترف المادى والدهنى الذى بلغه المجتمع العربى فى آخريات القرن الخامس الهجرى . وربما ابتعدوا فى ذلك كثيراً عن الأنماط القديمة فى الأدب والشعر خاصة ، فقد ابتعد الشعراء عن عموده التقليدى فى أسلوبه وموضوعاته . ونفروا من روح البداوة والحشونة وابتعدوا عن استخدام اللفظ الوعر والغريب ومالوا إلى استعمال الألفاظ الرقيقة والمولدة .

وزاد على الموضوعات التقليدية فى الأدب موضوعات أملتها ظروف العصر وقد تأثر بطبيعة الحال بالحروب الكثيرة وخاصة الحروب الصليبية . فكثرت القول فى الجهاد ، والحشوش وآلاتها ، ووصف الحصون والقلاع وإبراز فضائل الشجاعة والنخوة وتمجيد الدفاع عن الأوطان ، والتحرير على حبها والإشادة بها وبمكائنها فى النفوس . قال القاضى الفاضل يصف حصن الكرك الذى كان صاحبه الصليبي يقطع منه الطريق على حجاج بيت الله الحرام من الشام إلى أن أخذه صلاح الدين . قال القاضى :

« هو شجى فى الحناجر ، وقذى فى المحاجر ، قد أخذ من الآمال
بمُخَنَّقِها ، وقعد بأرصادِ العزائم وطُوقِها ، وصار رئيساً للدهر فى ذلك

الفَجَّ ، وعذراً لتاركِ فَرِيضَةِ اللهِ من الحَجَّ ، وهو وَحِصْنُ الشُّوبَكِ يَسْرَ اللهُ الآخر - كبيت الواصف للأسديين !

ما مَرَّ يَوْمٌ إِلَّا وَعِنْدَهُمَا لَحْمٌ رِجَالٍ أَوْ يَوْلَغَانِ دَمًا ،
وألفت الكعب في فنون الحرب والقتال وآلاته ، مثل كتاب لابن صابر المنجنيقي « عمدة السالك في سياسة الممالك » . قال ابن خلكان « ولم يتمه وهو مليح في معناه ، يتضمن أحوال الحروب وتعبتها ، وفتح الثغور وبناء الثغور ، وبناء المعقل ، وأحوال الفروسية والهندسة ، والمصابرة على الحصار ، والقلاع ، والرياضة الميدانية ، والحيل الحربية ، وفنون العلاج بالسلاح ، وعمل أداة الحروب والكفاح ، وصنوف الحيل وصفتها (١) » .

وألف ابن عساكر الدمشقي (المتوفى سنة ٥٧١ هـ) كتاباً في الجهاد سماه « كتاب الأربعين في الجهاد » ، وجمع القاضي ابن شداد لصلاح الدين كتاباً في الحرب يشتمل على فضائل الجهاد ، وما أعد الله سبحانه وتعالى للمجاهدين (٢) .
واهتم الأدباء بالتاريخ للعصر ومعارك صلاح الدين والمسلمين ضد الصليبيين ، وقد ألف عماد الدين الأصفهاني كتابه « البرق الشامي » و « الفتح القدسي » في ذلك والأخير في فتح بيت المقدس . ولكن كتابته كانت كغالبية أهل عصره مفرقة في البديع ، مسرقة في السجع حتى قال عنه بروكلمان « ومن أسف أنه أثقل كتابه هذا بالمحسنات اللفظية التي توقع في نفس القارئ أن الجانب اللغوي كان أهم عند المؤلف من الموضوع نفسه (٣) » .

قال في وصف معركة حطين الفاصلة ا « فاغتنمنا الحر في اللقاء ،
وهجنا إلى الهيجاء ، وأسرعَت الأَعِنَّةُ ، وأشرَعَتِ الأَسِنَّةُ ، ونقع النقعُ

(١) وفيات الأعيان ٢٦/٦ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١٤١/٥ .

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية مترجم ٢٣٣/٢ .

أوامَ الجوّ ، وأجابَ الصّدَى دَوِيّ الدّوّ ، وَجَالَ الجَالِيشُ ، وَطَارَ السّهْمُ
 العُرِيشُ ، وَعَصَفَتْ رِيَا حُ السّمَوَاتِي ، وَاسْتَعَبَرَتْ عُيُونُ البَوَارِقِ وَلَقِبْنَاهُمْ
 فِي عَرْمَرَمٍ عَارِمٍ وَمَجْرُ جَارِمٍ ، وَعَوَامِلَ جَوَازِمٍ ، وَصَوَاهِلَ صِلَادِمٍ وَضِرَائِمٍ
 ضَوَارٍ ، وَجَوَارِحَ جَوَارٍ ، وَأَسْوَدٍ قَدْ اعْتَقَلَتْ أَسَاوِدُ ، وَجِيَادٍ قَدْ حَمَلَتْ
 أَجَاوِدُ ، وَسَوَابِحَ قَدْ أَقَلَّتْ بُحُورًا ، وَصَقُورٍ قَدْ رَكِبَتْ صُقُورًا^(١) .

على أن بعض المؤلفين ابتعد عن مثل أسلوب العماد ، فكتب بأسلوب جيد
 مرسل ، كما فعل ابن شداد وعز الدين بن الأثير ، وبلغت بعض كتابات هذين
 العالمين حدًا من الروعة الفنية ترتفع إلى مستوى ما يصور من الأحداث .

وسجل أدب العصر معالم الحياة والمجتمع ، فكتب عن الاضطراب الاجتماعي
 ووصف تغلب أحوال الناس بين علو وانخفاض ، كذلك سجل الأدب النكبات
 والمجاعات .

ولم يُغْفَلْ كذلك تصوير الجانب الضاحك من الحياة ، كما صور الجانب
 المظلم القائم . واقتحم الميدان إلى موضوعات جديدة غير معهودة من قبل : مثل
 وصف الحمامات العامة ، ووصف أحوال الموظفين ، ورجال المكوس أو كتاب
 الدواوين ، والسخرية بهم ، والتعرض لوصف المدن والأقاليم بالمدح أو الذم ،
 فألفت كتب في فضائل الشام ودمشق ، والقاهرة والإسكندرية . وربما قامت بين
 الكتاب والشعراء مناظرات ، أو مناقصات حول البلدان كل ينتصر لبلده ويهجو
 بلد صاحبه . وما يذكر بهذا السبيل القاضي الفاضل في تفضيل مصر والقاهرة
 وذم الشام ودمشق ، ورد العماد عليه في ذكر فضائل الشام . وذكر أبو شامة أن
 شيخه علي بن محمد السخاوي ألف مقامة تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر ،
 ووصف كلاً من البلدين بما يليق به^(٢) .

(١) الفتح القدسي ص ١٦٧ .

(٢) كتاب الروضتين ٥٩/٢ .

وتناولوا وصف أنهار النيل ودجلة والفرات ، وبردى . ولضياء الدين رسالة في وصف النيل ، والقاضي الفاضل رسالة في النيل نقل بعضها ابن حجة الحموي في « ثمرات الأوراق (١) » .

وقويت الخطابة وازدهرت الدينية منها خاصة ، وتناولت شتى الموضوعات التي تعرض لأموال الدين ، ومن أشهر ما نعرفه خطب ابن الجوزي ومواعظه في بغداد ، ونقل أبو شامة وغيره من مؤرخي العصر خطبة ابن الزكي المطولة في فتح بيت المقدس ألقاها في الجمعة التالي للفتح أمام صلاح الدين . وكان الخطباء يعمدون إلى الأسلوب المسجع والاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والشعر العربي القديم وتضمين كلامهم كثيراً منها . واتخذوا من مجموعة خطب ابن نباتة نموذجاً يحتذونه .

وتناولت الرسائل كثيراً من موضوعات الشعر كالإخوانيات والتهاني والمداعبات والغزل والاشتياق بالإضافة إلى الرسائل الديوانية المتعلقة بشئون الدولة وأمر السلطان .

ودخل فن الكتابة القصص والأخبار والأمثال ، واهتموا بإيراد فنون التضمين والاستعارات والكتابات والتورية .

وتناول الناس فن المقامة الذي نشأ على يد بديع الزمان وتطور على يد الحريري فجالوا فيه في كل فج وتناولوا به شتى الموضوعات ، واستغلوا فيه فن القصة القصيرة إلى فن كتابة الرسالة وأسلوبها .

كذلك اتجه الناس إلى القصة وخاصة في المجال الشعبي ، ووجد فن اليوميات وكتابة المذكرات كما هو الحال في كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، وهو صورة مشوقة لحياته وعصره وعلاقاته المتعددة ومغامراته في مصر والشام مع أهله ومع الفرنجة .

(١) ثمرات الأوراق ص ١٣٢ .

كذلك نجد فن كتابة الرحلات على يد بعض الكتاب المشهورين مثل ابن جبير وعبد اللطيف البغدادي .

وانقسم الشعر إلى مذاهب شتى من حيث أسلوبه وموضوعاته ، وكان الغالب على شعراء العصر اتجاه البديع والإسراف فيه ، ومنهم ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وتوفيا سنة ٥٤٨ هـ . وكانا شاعري الشام في وقتها ، خلدا كثيراً من حروب نور الدين محمود ، ونظما فيه المديح ، ومنهم عرقلة الدمشقي (توفي سنة ٥٦٧ هـ) وابن عنين ، وابن الساعاتي ، وابن ممان ، وابن سناء الملك . .

وكان بعض الشعراء أميل إلى التقليد والاعتماد على مجازاة القدماء كالأبيوردي ، وابن عنين ، وعمارة اليمنى . وحيص بيص (توفي سنة ٥٧٤ هـ) ، وابن التعاويذي (توفي سنة ٥٨٤ هـ) . وكان الأبيوردي بدوي الأسلوب والمعاني ويكثر من تقليد المتنبي في الفخر وذم الزمان ، وكذلك كان ابن مقرب الأحسائي شاعراً بدوي النشأة والروح . يأمل في عودة العرب إلى السلطة ، ويفخر بعروبته ، ويذم الدهر لأنه قدم الخدم على السادة ، ويدعو إلى امتشاق الحسام للنضال حتى يسترد العرب مكانتهم فيقول مفتخراً :

وأنتَ من الفرع الذي فخرت به نزارٌ وسارت في معدٍّ مناقبُهُ
سما بِكَ بَيْتٌ عَبْدِيُّ أَحْلُهُ ديارَ الأعادي سمرُهُ وقواضبُهُ
وعالي مَحَلِّيٌّ في ربيعةَ أشرفتْ علُّوا على كلِّ المعالي مراتبُهُ
ويقول في ذم الدهر :

وقائِلُهُ هَوْنٌ عليك فإنها متاعٌ قليلٌ والسَّلامة في الزُّهدِ
فإن عَلَّتْ الروسُ الذبابُ بسكرة من الدهرِ فاصْبِرْ فهو سُكْرٌ إلى حَدِّ
وقد تملكُ الأنثى وقد يُلْتَمُّ الحصى ويُتْبَعُ الأَعوى ويُسَجَّدُ للقرْدِ
ويعلو على البحر الغناء وتلتقى على الدرِّ أمواجٌ تزيد على العدِّ

وظهرت أنواع متعددة من الشعر في صورة مخالفة لصورة القصيدة العربية التقليدية ، وانتقل نظام الرباعية أو الدوبيت إلى الشعر العربي ونظم فيه كثير من شعراء العصر كصلاح الدين الأربلي (توفي سنة ٦٣١ هـ) ^(١) ، قال ابن خلكان: « وله نظم حسن ودوبيت رائع ، وبه تقدم عند الملوك ». ووفد إلى المشرق فن الموشحات فنظم فيه ابن سناء الملك (توفي سنة ٦٠٨ هـ) ديواناً سماه « دار الطراز » ، ويقال إن أول من مكن لها في الشرق ابن عربي الشاعر الصوفي .

وتعددت ضروب الشعر الشعبي من « الزجل » إلى « الكان وكان » و « القوما » و « المواليا » . وقد عرف به في مصرف هذا العصر ابن القماح ، وفي الشام ابن مقاتل ، وفي العراق ابن جابر البغدادي . فأما « الكان وكان » فهو نظم كثيراً ما كان يستخدم للقص والحكايات الخرافية ، واستغله ابن الجوزي (توفي سنة ٥٩٧ هـ) وشمس الدين الكوفي في نظم المواعظ والحكم ^(٢) . وكان يسمى هذا الفن في مصر « بالزكالكش » قال علي ابن ظافر: « وأخبرني بعض أصحابنا المصريين أن بعض جلساء الصالح بن رزيك أشد بمجلسه بيتاً من الأوزان التي يسميها المصريون الزكالكش ويسميها العراقيون « الكان وكان » . ونظم فيه من العراقيين أبو منصور بن نقطة المسحّر (توفي سنة ٥٩٧ هـ) والحاجري (توفي سنة ٦٣٢ هـ) .

ويذكر صاحب تاريخ الموصل أن « المواليا » استحدثه الواسطيون وكان يجري على ألسنة العامة خاصة في شهر رمضان ^(٣) .

و « القوما » سمي بهذا الاسم لقولهم « قوماً للسكر قوماً » ونظموا فيه الزهدي والحمري والعتاب ^(٤) .

(١) وفيات الأعيان ١/١٦٧ .

(٢) تاريخ الموصل ٨٢ .

(٣) الأدب في عصر صلاح الدين ص ٣٢٥ .

(٤) تاريخ الموصل ص ٨٢ .